

الفصل الثالث عشر

ثقل المراهقين

يرتبط المراهق ارتباطاً وثيقاً بمجموعة النظراء «الثلة» فيسمى إليها سميّاً أ كيداً ، ويكافح في سبيل تثبيت مكانته بها ، ويتبنى قيمها ومعاييرها ومثلها السلوكية ، ويتجه إليها - قبل غيرها من المجموعات الأخرى - بوجوده وطاقته وولائه !

فالمرهق يشمر في وسط إخوانه بالمشابهة والمجانسة وبوحدة الأهداف والمشاعر والاهتمامات ، كما يشمر في الوقت نفسه بالهوة الواسعة التي تفصل بينه وبين السكبار في كثير من الأحيان . . . ويترب على ذلك ، إحساس المراهقين بمحاجتهم إلى التكتل والتآزر يرمون بهما إلى أمرين ؛ الأول تحقيق أهدافهم الحيوية والسعي المشترك في إشباع حاجات نموهم وتطورهم ، والثاني الدفاع المشترك - إذا لزم الأمر - ضد الجهات التي تنكر عليهم حقوقهم والتي تضمن عليهم بنصيبتهم من المسؤولية الاجتماعية !

فمن الحاجات النفسية التي يستعين المراهقون بالثلة على إرضائها ، الحاجة إلى الاستقلال العاطفي عن الوالدين والسكبار ، والحاجة إلى المخاطرة واكتساب خبرات جديدة في ميادين الحياة المختلفة ، والحاجة إلى التقدير التي كثيراً

بما لا يبعد إشباعاً خارج نطاق الثلة ، والحاجة إلى السند الرجولي الذي يجده المراهق في أخدانه وأصدقائه . .

ويشعر المراهقون — شعوراً طبيعياً — بحاجتهم إلى التداول فيما بينهم في آمالهم وآلامهم ، وفي خبرات الرحلة الهامة من مراحل العمر التي يعرفونها ، وفي آرائهم ونظراتهم الجديدة إلى الحياة المترتبة على هذه الخبرات . فتقوم الثلة في كل ذلك مقام « المدرسة الخاصة » التي يتعلم المراهقون فيها مبادئ الحياة العملية . . عن طريق تجاربهم المشتركة على الحياة ، ومناقشاتهم ، وأحاديثهم ، والاحتكاك بين خبراتهم . . . هذا ويزداد استمساك المراهق « بمدرسة الثلة » كلما بسدت مادة المدارس التقليدية عن خبرات الحياة الواقعية وحاجات النمو في المراهقة ، وكذلك كلما بسدت المسافة بين المراهق ووالديه في الأسرة وتمنر عليه أن يناقشهما في أموره وأحواله . . . ومن أمثلة الموضوعات التي يتعلمها المراهق في الثلة ولا يكاد يسمع عنها شيئاً في المدرسة والأسرة ، الموضوعات المتعلقة بالنمو الجنسي وعلاقات الجنسين ، وهي في مقدمة الموضوعات التي تصيب اهتمام المراهقين في تطورهم نحو الرجولة .

وكثيراً ما يفسر الآباء انصراف المراهق إلى ثلته وتقيده بأحكامها وبنظرتها إلى الأمور ، على أنه عقوق وتمرد وثورة على الآباء . وقد يكون هذا صحيحاً في الحالات الخاصة التي لا يمتد فيها الآباء بتطور المراهق نحو الرجولة ، ولكنه ليس صحيحاً على إطلاقه . . . فالاهتمام المتزايد بمجموعة

النظرء هو — في حالته السامة — مناهر من المظاهر الطبيعية للنمو النفسى للمراهقين ، ولرغبتهم في توسيع دائرة خبراتهم وعلاقاتهم الاجتماعية خارج نطاقها الضيق السابق .

التوصل إلى الثلة :

وَمَا يدل على الأهمية القصوى للثلة في المراهقة ، الكفاح المرير الذى يضطر إليه بعض المراهقين للحصول على قبول الثلة لهم ولتميز مكانتهم فيها . وتمثل القصة التالية — التى يرويها أحد المراهقين عن نفسه — أحسن تمثيل ، هذا الكفاح فى سبيل التوصل للثلة . كما توضح القصة أيضاً بعض النزاحى التى يقوم عليها تقدير المراهقين بعضهم لبعض . . . والثلة فى هذه الحالة من ثلل القرية ، فكانت إحدى صعوبات المراهق فى سميها إليها أنه ينتمى إلى أسرة (بندرية) الأصل ، تختلف عن أسر الأقران فى أساليب الحديث والتفكير والملبس . . . وكان من صعوباته كذلك أنه كان يصغر أفراد الثلة سناً ، كما كان متخلفاً عنهم فى إلمامهم ببعض الموضوعات . أما صعوبته الكبرى ، فكانت امتلاء جسمه وما ناله بسبب ذلك من تجريح وإهانات !

يقول هذا المراهق : « كانت القرية مقسمة إلى أجزاء ، أطلق على كل منها (جنب) ، وألف تلاميذ كل جنب (نادياً) لهم . . . ولكى أكون جديراً بمضوية النادى فى جانبنا من القرية ، كان على أن أجيد لعب الكرة . ولما كانت والدتى تقف لى بالمرصاد حتى لا تتسخ ثيابى ، فقد اكتفيت بدفع

الاشتراك المطاوب للنادى والمفاخرة به أمام النوادي الأخرى والمساخرة
فى تنظيم مبارياته معها . . . ولكن باقى الرفاق لم يرضوا عن هذا الموقف
فكانوا يهملون وجودى على صورة تبث المرارة فى نفسى . . . وكنيت إذا
أبديت رغبتى فى اللعب، لا يسند إلى "إلا دور (الجبون) وذلك عندما لا يوجد
من يقوم به غيرى !

وكان من أفراد الثلة من يتخذنى موضعاً للسخرية (التريقة) بسبب امتلاء
جسمى ، ودأب أحدهم على أن يقول لى كلما رآنى : « يا تخين . . . يا مشل . . .
أنت بتاكل إيه ؟ » وكنيت أسمع كذلك بسبب صغر سننى : « روح يا شاطر
العب مع اللى زيك . . . لسه صغير . . . عامل زى البنات ! » وكانت هذه
المبارات تجهلنى أنطوى على نفسى على قدر شغفى بوجودى مع جماعتى ،
فكنيت أختلق الأسباب للانسيحاب عند حضور أفراد (الثلة) ممن
يوجهون إلى أمثال هذه المبارات . . . »

ولاحظ المراهق أن أفراد الثلة يتهمسون ببعض الأحاديث فيستغرقون
فى الضحك خلال ذلك . ثم أدرك أنهم يتحدثون فى موضوعات جنسية
يحاولون إخفاءها عنه . . . وجهله ذلك يفكر حتى اهتدى إلى حل ييسر له
الإحاطة بما يجمله ويقربه إلى أفراد الثلة . فاشترى (سيجارتين) وأهداهما
إلى أحد الظاهرين فى المجموعة ممن يبدو على اطلاع واسع بالموضوعات
الجنسية ، وطلب منه أن يشرح له هذه الموضوعات . . . ويقول فى ذلك :
« وكم كان عجبى حين ناقشنى متسائلاً — ما أصلى ؟ ومن أين أتيت ؟ ولم

يحفرون للعريس سبمة ليالي منشاءً فآخرًا؟ .. » . وشرح له زميله كذلك وسيلة « الاستمناء » وغير ذلك من الموضوعات .. فبدأ المراهق يستمع بفهمه الجديد على كسب ثقة إخوانه ، بيد أنهم ظلوا يستخرون منه للاعتناء بهم في أثناء حديثه إليهم ، كما لاحظوا جهله ببعض المصطلحات والرموز الخاصة التي تستخدمها الثلة في الأحاديث .

ويستأنف المراهق وصفه لسكفاحه في الثلة ، فيقول :

« .. حدث بعد ذلك أن انقسمت الجماعة إلى فريقين ، فانضمت إلى الفريق الذي يماثني معاملة أحسن . واسكني أخطأت بمهل ذلك ، فقد زاد هذا من ملاحظة أعضاء الفريق الآخر من المشهورين (بقلة الأدب) وسبابهم لي . وكان من بينهم الناصح الذي انتشرته من قبل ، فاستمته بسيجارتين وشكوت له سوء معاملة من معه . . فقال إنه يجب علاج المشكلة من جذورها بمداومة « الاستمناء » فهو كفيل بإنقاص وزني إلى الربع !! أما أنه يؤثر على زملائي فليس بالملاج . . . »

نشاط الثلة في المراهقة:

ليس هناك طابع واحد مميز لمجموعات المراهقين . فكل مجموعة منها طابعها الخاص الذي يتأثر بتنوع البيئة المحيطة ، ويتكوّن المجموعة ، وأوصاف الأفراد المشتركين فيها من حيث السن والتعليم والمستوى الاقتصادي والاجتماعي ، ومن حيث الظروف النفسية والخبرات الخاصة بكل منهم .

وهناك مع ذلك بعض الاتجاهات المشتركة في نشاط المجموعات الحرة.

المراهقين —

فمن بين ما ينصرف إليه نشاط المراهقين في تلميم الحديث والمسامرة . . . وتدور بعض الأحاديث حول روايات السينما ، وشخصيات الأساتذة ، وأخبار الحى ، وأنباء المباريات والبطولات الرياضية ، وموضوعات السياسة ، والموضوعات الأخرى التي تصيب اهتماماً مشتركاً من أفراد الفئة . . . ويتجه جانب كبير من أحاديث المراهقين — ومن تصرفاتهم — إلى المفاخرة بالقوة البدنية والبحث عن وسائل تنمية الجسم وتقوية عضلاته . . . أما القسط الأكبر من هذه الأحاديث فينصرف — تامةً أو تصرفاً — إلى موضوعات الجنس . فيتداول المراهقون في أمور فتيات الحى والفتيات عموماً ، ويتحدثون عن مفامرات لهم — صحيحة أو مختلفة — في ميدان الجنس ، ويتبادلون المعلومات حول تغيرات البلوغ (ويكشفون بعضهم أحياناً بهذه التغيرات ويتباهون بها) وحول خبراتهم المرتبطة بالاحتلام والنشاط الجنسي الذاتي والأحاسيس الجنسية بوجه عام . . . وقد عرضنا في الفصل التاسع من الكتاب ، عينة من المعلومات الجنسية التي يستقيها المراهق من الفئة ، يتبين منها أن أغلب هذه المعلومات مشوشة مضاللة ، وأنها تمرض أحياناً بطريقة تزيد من قلق بعض المراهقين نحو النواحي الجنسية . ومهما يكن من أمر ، فإن المسام المراهق بموضوعات الحياة الجنسية واتساع خبرته في ميادين الفتيات ، من أسباب إيصاله مركزه بين أفراد

الثلة . كما أن تأخره في هذه المعارف يجعله عرضاً للتندر والزراية من إخوانه ، على ما رأينا في المثال المتقدم . . . ويعنى الراهقون عن هم أصغر سناً أو أقل خبرة باهتمام شديد إلى أحاديث أقرانهم ، بنية اكتساب المعلومات التي تنقصهم . ويحاولون مجاراة الآخرين في أحاديثهم بقدر المستطاع . وقد يضطرون إلى اختلاق الأقاويص عن مفاخرات لا سند لها من الواقع ، لتدعيم مركزهم بين أفراد الثلة .

ولا يقتصر نشاط الراهقين في هذا الميدان على الأحاديث وحدها بل يتمدها أحياناً إلى وسائل أكثر إيجابية تختلف باختلاف نال الراهقين . . . فمن هذه الوسائل ما كسبه الفتيات في الطريق ، وتبادل الكتب الرخيصة والصور الجنسية ، والجلوس إلى المقاهي لمقابلة الفتيات والتعليق على الرأىات والقاديات منهن ، وارتداد الراهقين — جماعات — دور اللهو والمسارح الرخيصة . . . ومنها أيضاً الغزوات الجنسية لبعض النال المنحرفة . . . ومما يذكره بعض الراهقين القرويين أن الثلة كانت تبحث عن حفلات الزفاف وماشابهها في القرية فلا يفوتها حضور حفلة منها ، وذلك بغرض التطلع إلى الفتيات والراقصات في هذه الحفلات .

وللقوة البدنية والفتوة والشجاعة منزلة خاصة في نال الراهقين ، ترتفع بمساحبتهم في نظر أفراد الثلة . . . وقد روى كثيرون أن ضالة تكوينهم الجثمانى كانت تحول دون احتلالهم المنزلة المقابلة لسنهم في الثلة ، فكانوا يضطرون إلى مصاحبة صفار السن من أفرادها وعدم تخطيهم المنزلة المخصصة لهؤلاء . ولجأ بعضهم إلى الأعمال العدوانية التي تظهرهم بظهر البطولة ، في محاولتهم لتقدم الصفوف بين الأقران !

ويتنهما جانب من نشاط الثلة — وخاصة في ثلث المراهقين من سنار السن — إلى المقاتلة والمصارعة الحرة ومحاولات التغلب البدني . . . وفي بعض الأحيان ، ينقسم المراهقون إلى فريقين متنافسين أو أكثر ، يحاول كل فريق أن تكون له الغلبة على غيره ، ويلجأون في ذلك إلى الالتحام اليدوي ، وإلى وسائل القتال الأخرى أحياناً . . . ومما يرويه أحد المراهقين أن ثلته كانت تجتمع في متنزه قريب لتضع « برنامجاً للمشابقات اليومية » وكانوا يصنعون النبال ويحجمون (الظلطي) ويتسرون على إصابة الأهداف استعداداً لناورة الفريق الأخرى !

ويدور كثير من نشاط المراهقين — علاوة على ما سبق وصفه — حول محاولة الظهور بمظهر الرجال الأحرار المتصرفين في أمورهم . . . ومن وسائلهم في ذلك الجلوس إلى المقاهي ، والتدخين ، وإنفاق المال ليجرد التباهي والظهور . . . ومنها أيضاً محاولاتهم في تفسير الأوضاع الاجتماعية القائمة والثورة عليها ، التي تعرضنا لها في الفصل السابق .

وينصرف نشاط بعض الثلث إلى الرياضة والألعاب المختلفة ، التي من أهمها كرة القدم ، وفي المدينة ركوب الدراجات أيضاً . . . على أن النشاط في كثير من الثلث نشاط غير موجه ، حيث لا تجد الثلة ما تقوم به غير التسكع في الطرقات أو المشاغبة والأعمال المدوانية الاستفزازية ! !

ولا شك أن عبث بعض الثلث الحرة للمراهقين يعود في جانب كبير منه إلى النقص في إمكانيات البيئة المحيطة من حيث الوسائل الصحيحة

الضخمية الفراغ ، ووجود الأندية ومسكرات الشباب وماشابه ، مما يمكن لها أن تستغل طاقة الراهقة وإمكاناتها الضخمة استقلالاً ووجهها مفيداً للمرهق ومجتنعه . . . وما يبشر بالخير أن البلاد تنتج بخطوات واسعة — في عهدتها الحاضر — نحو الإكثار من الأندية والمسكرات ، مما يرجح أن يؤتى ثماره بين الراهقين والشباب .